الفصل الثالث

الآثار على البادية والقبائل غير العربية

أ- الآثار على القبائل البدوية

شكل البدو في مجتمع المشرق العربي فئة مستقلة، واستطاع هؤلاء بتأثير عوامل بيئية وسياسية أن يشكلوا القوة المرجحة في الصراعات السياسية قبل العصر السلجوقي، وفي العصر المملوكي ظل المجتمع العربي على علاقة بالبداوة العربية، فطرق الحج والتجارة كانت تمر من خلال ديار البدو ومواطن انتشارهم. كما شكلوا خطراً دائماً على المدن والحواضر، إذ كانوا يغيرون عليها طمعاً في الثروات، أو في محيطها الزراعي. وأثناء النزاعات والصراعات العسكرية مال هؤلاء الأعراب وانحازوا إلى كفة الميزان الرابحة، وانضموا للطرف الذي شكل غالباً ضماناً لمصالحهم[1].

كان لتوغل البدو في بلاد الشام وسيطرتهم على طرق الحج والتجارة والدور التجاري الذي يفترض أنه قام به كل من المماليك والمغول أثر كبير على المجتمع العربي الإسلامي، فقد أمدوا الأطراف المتصارعة بالخيل والأسلحة والجمال وجميع المتطلبات الحربية عن طريق ما يمكن أن يسمى (تجارة الترهيب). حيث أمدوا العدو المغولي بما يحتاجه دون علم السلطات المملوكية، ومن المرجح أنهم أمدوا السلطات المملوكية بالاحتياجات نفسها، فضلاً عن تجارة الخيل التي شجعها سلاطين المماليك معهم.

تضافرت عدة عوامل دفعت السلطات المملوكية إلى كسب ود البدو لجانبها، منها الدور السياسي الذي قاموا به أثناء الصراع مع الصليبيين أول الأمر ثم مع المغول، إذ التجأ بعض أمرائهم إلى المغول حين تضاربت مصالحهم مع مصالح السلطات المملوكية، لذلك عمدت السلطة مراعاة مصالحهم قدر استطاعتها والعفو عن أمرائهم الهاربين.

١- العمري: (شهاب الدين ابي العباس احمد): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العربي في القرنين ٧ و ٨ الهجريين، تحقيق دورو تياطرافولسكي، بيروت، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٥، ص ١٣-١٤- مقدمة المحقق.

ولا بد قبل الخوض في الحديث عن الدور السياسي الذي شغله البدو، والعلاقة بينهم وبين السلطات المملوكية أثناء الهجوم المغولي على المنطقة من توضيح التوزع الجغرافي للقبائل المنتشرة في بلاد الشام بشكل سريع وموجز.

انتشرت القبائل البدوية في بلاد الشام الداخلية وسيطرت على مساحات واسعة في الصحراء، إذا أكد ذلك أكثر المؤرخين والجغرافيين، فابن شيخ الربوة ذكر عن أعمال صفد: «ومن أعمالها كفركنا، وهي قرية كبيرة بها مقدمو العشائر ورؤساء الفتن والهوى، يسمون قيس الحمراء ومن أعمال صفد مدينة اللجون وهي مضافة العشير والهوى واليمن وأهل الناصرة كما أن أهل كفركنا قيس»[1].

وضمت غزة عدداً من القبائل العربية وخاصة في صحراء سيناء، وكانت غالبية بطونها من جرام الطاغية ثم من جذام القحطانية، وفضلاً عن ذلك كانت هناك قبائل صغيرة أخرى[2].

بالإضافة إلى القبائل البدوية المتمركزة في البادية السورية، وفي المناطق المحيطة بحلب مع وجود بعضهم في غوطة دمشق وفي الجولان ومناطق أخرى، وكان لهؤلاء دور سياسي هام في المنطقة. وكانت القبيلة الأكثر تميزاً بين القبائل قبيلة ربيعة[3]. التي يرجع نسبها إلى طيء التي ظهرت في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي. وانقسمت هذه القبيلة في فترة البحث إلى ثلاثة أفخاذ: آل فضل، آل مرى، آل علي.

وازداد شأن قبيلة ربيعة في عصر الدولة الأيوبية، ففي مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي منح حديثة الربعي رسمياً لقب أمير العرب من قبل الملك العادل الأيوبي (٥٤٠-٦٣٦ هـ/١١٤٥-١٢١٧م). ويعتقد أن هذا اللقب يشير على مكانة صاحبه السامية، فقد أورد سهيل زكار نقلاً عن ابن العديم في حوادث سنة ٤٧٢ هـ /١٠٧٩-١٠٨٠م أن دولة بني مرداس قد انتهت في هذه السنة لكن أمرة العرب ظلت في بني كلاب حتى أيام الظاهر الأيوبي (١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما قويت قبيلة طيء فاستولت على الإمرة. ولا ندري فيما إذا كان اللقب قد وجد بين قبائل بلاد الشام بعد قيام الإسلام، أو أن اللقب كان موجوداً فيها قبل قيام

١- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٢- زكار: فلسطين، ص ٥٦٨.

٢- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٦.

٣- من أجل ربيعة ينظر العمري: مسالك الأبصار قسم القبائل ص ١١٤-١١٦-١٣٦- التعريف، ص ٧٩-٨٠- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٩٣٦-٩٣٧- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٤-٢٠٥-٢٠٨-٢١٠- قلائد الجمان في التعريف بقائل عرب الزمان، القاهرة، دار الكتب الحديثة ط١ ١٣٨٣ هـ /١٩٦٣م، ص ٧٣-٨١-٨٢- العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٣٢١- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٢٦- زكريا (أحمد وصفي): عشائر الشام، دمشق، دار الفكر، ط٢ ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م، ص ٩٢

الإسلام، وليس من المستبعد أن تكون وظيفة إمرة عرب الشام وجدت أيام حكم الدولة البيزنطية لبلاد الشام، وحمل هذه الرتبة أمراء غسان. وعلى كل حال فإن هذا اللقب كان يعني في العصر المملوكي زعيم القبائل بالشام والحجاز والحدود العراقية[1].

وفي العصر المملوكي وتحديداً في فترة حكم الظاهر بيبرس أعطيت الإمرة لعيسى بن مهنا، فعندما اشتد النزاع على السلطة في القاهرة واتجه المماليك البحرية من مصر إلى بلاد الشام كان بينهم بيبرس الذي طلب من أبي بكر علي بن حديثة إيوائه لكنه رفض فآواه عيسى بن مهنا وأكرمه وأعطاه خيلاً، ورداً للجميل أعطاه بيبرس الإمرة ورفض أن يشرك معه لقب إمارة أي شخص[2].

ومعنى هذا أن إمرة العرب أصبحت رتبة عسكرية عالية في العصر المملوكي، وجعلت ضمن الجهاز الإداري[3].

ومن القبائل الأخرى التي استوطنت بلاد الشام قبيلة زبيد[4] وديارهم في المرج والغوطة ومناطق أخرى، إضافة إلى بني كلاب الذين قطنوا أطراف حلب وبلاد الروم وكانت شوكتهم قوية في الفترة التي سبقت العصر المملوكي[5]. إلى جانب قبيلة ثعلبة، جرم، جذام[6].

أولاً: المهام الموكولة للبدو:

شكل البدو في فترة البحث جبهة داخلية قوية وقفت إلى جانب السلطات المملوكية في صراعها مع العدو المغولي، ويعلل موقف البدو هذا بمصالحهم الشخصية المرتبطة بعلاقتهم مع السلطات والمتمثلة في حصولهم على الإقطاعات والمنح والهدايا، إضافة على الربح الهائل الذي نتج عن طريق تجارتهم بالخيول. لذلك حرص أمراء البدو على تحسين العلاقات مع هذه السلطات ومساندتها والوقوف لجانبها في أثناء الغزوات المغولية وهذا ما لاحظناه في أثناء غزوة هولاكو

١- العمري: المصدر نفسه، ص ٢٧-١١٣- التعريف، ص ٧٩- زكار (سهيل): إمارة حلب، دمشق، دار الكتاب العربي ليس له سنة طبع، ص ٨٥-٨٦.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٧- العمري: مسالك، ص ١١٧-١١٨- زعرور: الحياة الاجتماعية، ص ٢٥٧.

٣- العمري: المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص ١٦-١٧.

٤- من أجل زبيد ينظر العمري: مسالك القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤.

٥- ينظر العمري: المصدر نفسه، ص ١٤٣-١٤٥- الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ج ٢، ص ١٢٣-١٢٧ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، زكار: إمارة حلب.

٦- للمزيد من التفاصيل عن هذه القبائل ينظر العمري: المصدر نفسه – القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤؛ قلائد الجمان – المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، الإسكندرية، دار المعرفة، ١٣٨٩هـ، ص ٣-٤-٥-٦-٧-١٨-٢٠.

سنة ٦٥٨هـ /١٢٥٩م، فقد اشترك آل فضل إلى جانب المظفر بن المظفر صاحب حماة[١].

كما أنهم اشتركوا في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م إلى جانب الناصر محمد بن قلاوون الألفي، وشجعهم السلطان في أثناء القتال وأثنى على جهودهم، وقد وصف كل من العمري والقلقشندي طريقة تقدم الفرق البدوية من آل مرى إلى ساحات القتال، إذ ذكر أن مغنية تعرف بالحضرمية كانت تغني وهي في الهودج فتقول:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... ليالي لاقينا جذاما وحميرا

ولما لقينا عصبة تغلبية ... يقودون جرداً للمنية ضمرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببضع أبت عيدانه أن تكسرا

سقيناهم كأساً سقونا بمثله ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا[٢]

ولم تقل مساهمتهم العسكرية في وقعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م عن مساهماتهم المذكورة سابقاً في القتال، فقد اشتركت القبائل البدوية إلى جانب العرب المسلمين، وكانت مهمتهم بعد انتهاء المعركة تضليل الطريق أمام الهاربين من المغول، فعندما وصلوا إلى البرية تركوهم حتى يموتوا جوعاً وعطشاً[٣]. وباعتبار أن البدو وقفوا موقفاً إيجابياً ومشرفاً أثناء الغزو المغولي للبلاد، فقد أوكلت السلطات لهم عدة مهام عسكرية منها المحافظة على أمن البادية، رصد تحركات العدو المغولي باعتبارهم كانوا يحرسون الحدود الفراتية والعراقية، إضافة إلى توزعهم وانتشارهم في المناطق الشمالية، كما أوكل إليهم الغارة على مراكز العدو المغولي على الحدود العراقية الشامية.

نستطيع القول إن نتائج الهجوم المغولي عند بعض القبائل البدوية كان إيجابياً وليس سلبياً، فالهجوم دفع بهذه القبائل إلى الاتحاد مع بعضها ومع السلطات المملوكية لصد الهجوم المغولي، لأن للغزو آثاره المدمرة على كافة فئات المجتمع الشامية إذا لم تتحد وتتكتل في وجهه. أي بمعنى أدق إن التدمير والتخريب والقتل لن يقتصر على مجتمع المدن أو المجتمع الفلاحي بل سيشمل حتماً المجتمع البدوي.

١- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٩٤٠- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٦- العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢٤٥- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٢٧ – سيانو: مملكة حماة، ص ٨٦.

٢- العمري: مسالك، ص ١٤٢- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٩.

٣- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٨٥- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٦٣-١٦٤- بدر مغول إيران، ص ١٠٦.

رصد العدو والإغارة عليه ومساعدة السلطات داخلياً:

اعتمدت السلطات المملوكية على القبائل البدوية في رصد تحركات العدو المغولي، فأوكلت إليهم أولاً حماية وحراسة الحدود، وأول من عهد إلى البدو بهذه المهمة الظاهر بيبرس، ففي سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠م جند القبائل البدوية من عرب خفاجة المقيمة على الحدود الفراتية، وحثهم على قتال هولاكو، فأطاع هؤلاء الأمراء وشنوا الغارات ووصلوا حتى أبواب بغداد[١].

وبرزت مقدرة البدو في رصد العدو وفي فترة معركة الخازندار، حيث أطلعوا على أسرار العدو المتقدم والمتمركز قرب سلمية، وبعثوا بأنباء ذلك للسلطان[٢]. كما اعتمد عليهم الظاهر برقوق سنة ٧٩٦ هـ/١٣٩٣م في رصد العدو على الحدود الفراتية لمعرفة تقدم فرقه العسكرية[٣].

ولم تكن مهام البدو مقصورة على رصد تحركات العدو المغولي وإنما أضيفت إليها مهام الغارة على العدو المتمركز بالقرب من حدود بلاد الشام وذلك بأمر من السلطات المملوكية، ففي سنة ٦٧٠ هـ /١٢٧١م سير الظاهر بيبرس الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري وجماعة من البدو يتقدمهم الأمير عيسى بن مهنا للغارة على المغول الموجودين في حران، فقطع هؤلاء الفرات، واصطدموا مع المغول واستطاعوا إجلاءهم عن المدينة[٤].

وفي سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣م أوكل الظاهر بيبرس إلى الأمير عيسى بن مهنا مهمة الغارة على الأنبار حيث تمركز المغول فيها فامتثل عيس للأوامر وهاجمها، كما اقتتل مع عرب خفاجة وظل القتال ما يقارب نصف نهار حتى انتصر عليهم[٥].

وظهر تعاون آل مرى وآل فضل مع السلطات جلياً واضحاً سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م، عندما أغاروا على المغول ونهبوا الكثير من الأمتعة والأقمشة واستاقوا الخيول وغيرها[٦].

وترسخت ثقة السلطان بالقبائل البدوية بعد أن أوصلوا له معلومات وهو يحاصر قلعة الروم، مفادها أن جماعة من المغول يقدر عددها نحواً من تومان[٧] اجتازوا الفرات قاصدين عسكره،

١- ابن عبد الظاهر: الروض، ص١١٩- النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٤٦- ابن خلدون: العبر، ج٥، ق٤، ص٨٢٧- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٤-٤٩٢- عطا الله: ص٨٧- العبادي: ص٢٠٧- عدوان: ص٥٤- عودات: تاريخ المغول، ص٩٧.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٦- المقفى، ج ٧، ص ١٧٦.

٣- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٠٨٥- منقريوس: تاريخ دول، ج ٣، ص ٧٢.

٤- ابن شداد: الاعلاق النفيسة، ج ٣، ق ١، ص ٦٢.

٥- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٢٦- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٦.

٦- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١١١.

٧- ورد شرحها في المدخل.

فاتفق رأيه مع بقية الأمراء على تجريد فرقة تضم عدداً من الأمراء إلى جانب آل مهنا، آل فضل، آل مرى، وبني كلاب إلى جانب طائفة من التركمان، فسار الجميع حتى وصلوا الفرات غير أنهم لم يعثروا على آثار العدو، فلما تحققوا منخبر ذلك علموا أن ذلك كان حيلة من ملك الأرمن الذي استنجد به أهل القلعة التي حاصرها المسلمون، فعلم أنه عاجز عن فك الحصار، فاحتال بأن ألبس خمسة آلاف فارس أرمني زي العسكر المغولي، وجعل لهم رايات وطبول على زي المغول وأمرهم بأن ينزلوا الفرات، ويظهروا أمام البدو حتى يظنوا أنهم مغول فينقل هؤلاء أخبارهم إلى السلطان الذي يحاصر القلعة فيتراجعوا عن محاصرتها[1].

تجلى امتثال أمراء البدو من آل مهنا لأوامر السلطان الناصر محمد. وتجلى واضحاً في العمل الذي أقدم عليه محمد بن عيسى بن مهنا ضد أمير مكة حميضة، فقد استغل ملك المغول سوء الأوضاع السياسية وجرد مع الشريف حميضة عساكر مغولية عدتها أربعة آلاف فارس لردعهم وساعده في إنجاز مهمته موت الايلخان المغولي خدابنده، فهاجم الأمير محمد عسكر حميضة وقتل منهم الكثير، وأسر حميضة[2].

ثانياً: أثر الهجوم المغولي على الأوضاع التجارية البدوية:

أثر جفاف المنطقة التي استوطنها البدو بشكل كبير على أعمالهم، فقد أدركوا عدم فاعلية أراضيهم الزراعية، لذلك اتجهوا إلى مجالات أخرى تؤمن لهم مصادر عيشهم اليومي وتؤمن لهم مستلزماتهم العسكرية كالأسلحة والعتاد وغيرها من السلع الأخرى لحماية أنفسهم من هجمات الآخرين فاتجهوا إلى التجارة، وقد تلمس البدو المجالات التجارية التي تدر عليهم الأرباح الطائلة، لذلك توجهوا إلى المتاجرة بالسلع الممنوعة، ساعدهم على ذلك انخفاض رقابة السلطات على البادية قياساً للمدن، وفي ظل هذا المناخ الحر استطاع البدو أن يتاجروا في الخيول والأسلحة والجمال.

وما جعلني أرجح هذه المسألة هي درجة الغنى التي وصل إليها البدو في فترة البحث، فقد أورد المقريزي أن البدو وصلوا إلى الغنى الفاحش في عصر السلطان محمد بن قلاوون فذكر:

«ولبسوا في أيامه الحرير الأطلس المعدني، والداير الباولي، والاسكندري المطرز بالذهب. وصاغ السلطان لنسائهم الأطواق الذهب المرصعة، وعمل لهن الشنابر[3]. المشهرة بأكر الذهب

١- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٥.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٤٨.

٣- الشنابر: شريط من الحرير الأسود أو الأحمر القاتم عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع، تلفع النساء على رؤوسهن فوق العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثاني من مؤخرها. انظر المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٨.

والأساور المرصعة بالجوهر واللؤلؤ، وبعث لهن القماش السكندري والشراب والشمع، وعمل لهن البراقع المزركشة والمسك وأنواع الطيب، وذلك بعد ما كان لبس أمرائهم إلى آخر الأيام المنصورية الطراطير الحمر تحت العمائم الشامية من القطن، وكانت خلعهم أما مسمط أو كنجي»[1].

والسؤال المطروح على بساط البحث هو ما مصدر هذا الثراء؟ هل كان من العمل الرعوي؟ هل تعامل البدو مع أطراف منحتهم هذه الأموال؟ أم هل كان ذلك ناتجاً عن مردود الإقطاعات التي حصلوا عليها من السلطات المملوكية؟ أم كان هناك مصادر أخرى لم توردها المصادر بشكل واضح؟ بالطبع كان هذا الثراء محصلة مصادر متعددة منها موارد الإقطاعات التي منحتها السلطات للبدو، وهي عبارة عن قرى كبيرة وصغيرة درت عليهم الغلات والحواصل، وقد أقدمت السلطات على ذلك لتشجعيهم في الحفاظ على أمن البادية، إذ كان البدو يحرسونها ويلقون القبض على كل متمرد يسعى للفرار عبرها، وكانوا يقدمون الملجأ لجميع الفارين من العراق والحجاز وغيرها، ومن الذين حماه البدو بعد فراره من العراق الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي علي بعد دخول المغول لبغداد إذا انتقل من عرب إلى عرب حتى وصل إلى عيسى بن مهنا فحماه، وظل في حمايته حتى ملك قطز دمشق، فبعث رسولاً اصطحبه لمصر ثم بايعه على الخلافة[2].

إضافة إلى موارد الإقطاعات، وأن عمليات السلب والنهب التي كانت تقوم بها بعض القبائل البدوية أثناء حصول الغزوات المغولية شكلت مورداً من موارد البدو. ومن المحتمل أن البدو استغلوا الصراع بين المماليك والمغول وأمدوهما كليهما بالأسلحة والعتاد والخيول وسلع أخرى، فسارع كل من المغول والمماليك لكسب رضاهم وأغداق، الأموال والهبات والعطايا عليهم حتى يستمر تدفق المتطلبات الحربية عليهم. وهذه نقطة جديرة بالاهتمام والتركيز عليها، ويبقى ما نقوله مجرد افتراضات وتخمينات.

إن مواطن سكن البدو الواسعة والمترامية الأطراف وغياب رقابة السلطات، شجعت البدو للعمل بتجارة التهريب - حيث كانت تستقدم الخيول، الجمال، الأسلحة، المعدات دون علم السلطات للتهرب من دفع الرسوم المقررة عليها، وساعدهم على عملهم هذا انفتاح حدود البادية على جهات متعددة ويؤكد ذلك الكميات الهائلة من الخيول التي باعوها للمماليك والتي أثبتتها المصادر بشكل كبير، فمن خلال استعراض العصر المملوكي لوحظ أن البدو

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٧-٥٢٨.

٢- ابن الجزري: المختار، ص ٢٦٠-٢٦٢- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٦-زعرور: المرجع نفسه، ص ٢٦٢.

تسابقوا في الحصول على الخيول لمنحها أو بيعها للسلاطين حيث كانوا يكسبون أثمانها مضاعفة. ومن السلاطين الذين ساهموا في ازدهار هذه التجارة الناصر محمد بن قلاوون الذي تحالف مع آل مهنا وآل فضل وأصبحوا ساعده الأيمن في الحصول على الخيول الأصيلة[1].

وعندما توفي الناصر محمد ترك قدراً كبيراً من الخيول قدرت بثلاثة آلاف فرس في المرعى، وأربعة آلاف وثمانمائة في الاصطبلات، وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المريات والقرشيات عدا أتباعها وقد تولى تدريب هذه الخيول العربان والأمراء، وكان يترتب على كل أمير من أمراء الألوف أربعة رؤوس سنوياً ليروضها[2].

لذلك لم يأل أمراء البدو جهداً في إحضار الخيول للسلاطين سواء بطلب من السلطان شخصياً، أو على سبيل الهدية، فالأمير موسى بن مهنا حضر سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ومعه الخيول المطلوبة، وكرر هذا العمل مهنا بن عيسى الذي أخذ أثمانها مضاعفة. وقدرت الخيول التي جلبها فياض بن مهنا سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بسبعين فرساً ثمنها ألف ألف درهم، وخمسين هجيناً وعشر مهريات، والتي جلبها سنة ٧٤٩هـ /١٣٤٨م اثنتان وسبعون فرساً اقلها بعشرة دراهم وأوسطها بعشرين درهماً، وأعلاها بثلاثين درهماً عدا الهجن[3].

وتعد الجمال مورداً آخر من موارد البدو التي اعتمدوا عليها في معيشتهم وفي تجارتهم، وكانوا لا يفوفرون جهداً في كسبها أثناء غاراتهم على القرى. ومن المرجح أن السلطات قد حرصت على الحصول على الجمال من أجل الاستفادة منها وقت السلم ووقت الحرب، وكانت تجارة الجمال بالنسبة لهم تؤمن لهم العيش الدائم، وقد ذكر الصفدي ذلك في تحفة الألباب عندما قال: «**كان البدوي يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشتري به الغلة رخيصة، لأن الناس يحتاجون إلى السفر إلى مصر**»[4].

أن المتأمل لهذا النص يلاحظ مدى براعة البدو في استغلال الفرص المناسبة، فالناس كانوا مضطرين لاقتناء الحيوانات لاستخدمها في نقلهم إلى مصر وقت حصول الغزو المغولي.

وفي النهاية يمكن القول بأن السبب الأكثر وجاهة من الأسباب المذكورة لثراء البدو وهو تجارة التهريب التي مارسها البدو، والتي حصل لهم بفضلها نفوذ وجاه في البلاد.

---

١ - اليوسفي: نزهة الناظر، ص ١٩٨- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٦-٥٢٧.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٩-٥٣٠- زكريا: المرجع نفسه، ص ٩٥.

٣- اليوسفي: المصدر نفسه، ص ١٩٨- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص٣٧٣-٤٥٢- ج ٢، ق ٣، ص ٦٩٢-٧٧٠.

٤- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ١٦٨.

وهناك حوادث تاريخية دلت على وجود علاقة خفية بين المغول والبدو، وهي لجوء الأمير قرا سنقر والأمير مهنا ابن عيسى إلى الأراضي المغولية سنة ٧١١ هـ /١٣١١م، ذلك أن المغول أعطوا الأميرين الهاربين إقطاعات، فقد أقطع مهنا إقطاعاً بالعراق، وهنا يطرح سؤال آخر لماذا أقدم السلطان المغولي (خدابنده) على إقطاع مهنا؟.

من المحتمل أن خدابنده أقدم على هذا العمل للحصول على معلومات عسكرية وسياسية عن بلاد الشام في وقت كان فيه بأمس الحاجة لمثل تلك المعلومات وذلك للدخول للمنطقة وإحراز أمجاد جديدة تضاهي الأمجاد والانتصارات التي حققها غازان للمغول، أو كان هدف خدابنده الحصول على الأسلحة والعتاد بشكل سري من البدو عن طريق تهريبها دون علم السلطات وإلا لما أكرمه كل هذا الإكرام[1].

ثالثاً: استغلال قدوم المغول وفساد البدو بالمنطقة:

أثر قدوم الغزاة للمنطقة بشكل مباشر على بعض الأعمال البدوية، فقد أقدمت بعض القبائل على القيام بعمليات السلب والنهب إثر موقعة عين جالوت وكان على رأس هذه القبائل قبيلة زبيد القاطنة في نواحي دمشق، فقد هاجموا أكثر أراضي دمشق الزراعية وخربوها فاضطرت السلطات مرغمة إلى قتالهم وقتل الكثير منهم[2]. ولما كانت السلطنة المملوكية منشغلة بالمخاطر الناجمة عن المغول سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م فإن البدو استغلوا ذلك وساعدهم تمرد سنقر الأشقر، فعرضوا بعض مناطق فلسطين ومنها غزة ونابلس لأعمال النهب والسلب، فردت السلطات على ذلك بتجريد كل من الأمير علاء الدين ايدكين الفخري بعساكر غزة، وشمس الدين سنقر البدوي بعساكر من مصر، وقد ساعدهم نائب غزة في تأدية مهماتهم، فقبض الفخري على جماعة منهم، وشنق عدداً من رجالاتهم قدر باثنين وثلاثين رجلاً[3].

واستطال البدو في بعض مناطق الشام سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٩م أثر غزوة غازان حيث سلبوا الجند الهاربين من المعارك الحربية، ولم تستطع السلطات في ذلك الوقت الرد عليهم ومعاقبتهم فانتظرت حتى رحل غازان عن المنطقة، عندئذٍ ردت عليهم بشكل عنيف حيث طلبت

١- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢١٨-٢٣٣- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣٦- الصفدي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢١- ابن بطوطة: الرحلة، ص ٧٧- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص١٢٨-١٣١-٣٧٣-٣٧٤-١٠٨-١٢٨- ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٧- المقفى، ج ٧، ص ٢٠٢- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٤٢- زكريا: المرجع نفسه، ص ٩٥-٩٦.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٤.

٣- ابن الفرات: تاريخ، ج ٧، ص ٢٢٥- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٩-٦٩٠- زكار: ص ٥٧٦- عطا الله: ص ٢٠١.

مشايخهم وألزمتهم بإحضار ما أخذوه من العسكر وأهل البلاد أثناء هجرتهم إلى مصر[1].

وفي أثناء التحضيرات لوقعة شقحب أقدم الأمير (سيف الدين قطايا) أمير قبيلة بني كلاب التي تتطلن في شمال بلاد الشام على إحداث القلاقل والفوضى حين قام بالنساد في نواحي حلب، مما اضطر السلطات مرغمة لقتاله فهزمته، عندئذٍ لجأ إلى سلطان المغول غازان الذي أكرمه وحماه، وظل مقيماً عنده حتى توفي غازان فرأى أنه لا بد من العودة للمنطلقة فقد استعطف نائب حلب الذي كاتب السلطان بشأنه فعفا عنه وقدم للمنطلقة سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م[2].

وتعرضت بعض مدن الشام لغارات البدو أثناء حملة تيمورلنك على البلاد، وكانت حلب هي الأسوأ وضعاً بين تلك المدن، فقد هاجمها بد آل فضل مما اضطر نائبها دمرداش إلى الاستنجاد بالتركمان الرمضانية، كما أقدم أمير آل فضل ويدعى علي على تقسيم البلاد، ولم تكن هذه هي المحاولة الوحيدة من قبله، بل أعادها مرة أخرى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م بعد رحيل المغول عن البلاد فتصدى له نائب الشام آنذاك ومنعه من هذه المحاولة[3]. ولا ندري ما هو التقسيم الذي قام به علي هل هو جغرافي، أم إداري حيث حاول الاستقلال بالمنطقة لتبقى تحت نفوذه.

وبالنسبة لبدو المنطقة الجنوبية (فلسطين) فإن الرواية ترجح أن قبيلة حارثة كانت بين عشير جبال صفد واللجون وقاقون الذين قاموا بنهب القوات العسكرية المتراجعة أمام ضغط تيمورلنك، وعلى رأسها السلطان فرج بن برقوق، وقد عانت هذه القوات المتراجعة في الطريق إذ قام البدو بسلبهم الثياب والأمتعة من الدروع والسيوف، حتى أن قسماً منهم ساروا حفاة عراة، عندئذٍ عمد نائب صفد دقمان المحمدي إلى قتالهم، لكن البدو استطاعوا التغلب عليه، فهزموه وقتلوا من مماليكه اثني عشر فارساً وأسروا أمه، فما كان منه إلا اللجوء والاستنجاد بنائب طرابلس شيخ المحمودي الذي هب لمساعدته وقتال العرب، واستطاع الاثنان التغلب عليهم وأخذوا ستة آلاف بعير، عندئذٍ سارع متيريك أمير حارثة بالتوسط لدى السلطة للعفو عنه واسترجاع ما أخذه منهم، فرفض دقماق الطلب[4].

وعلى الرغم مما حل بتيمورلنك فقد تابع أمير البدو غاراته، مما اضطر الأمير سودون

١- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٢.

٢- المقريزي: السلوك ج ٢، ق ١، ص٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٣-٣٤٤.

٣- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ١٤٩-٢٢١.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص١٠٦٦-١٠٦٧- العسقلاني: إنباء، ج ٤، ث ٢٠٠-٢٤١ الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٨٥-٨٦- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٠ – زكار: المرجع نفسه، ص ٥٦٩- الطراونة: نيابة، صفد، ص ٢١٤.

الحمزاوي نائب صفد إلى اعتقاله والتمثيل بجثته سنة ٨٠٥ هـ /١٤٠٢م[١].

نستخلص مما ورد أن طوائف البدو التي ارتبطت مصالحها مع السلطات سارعت إلى مساعدتها ضد الغزو المغولي، بينما قامت الطوائف البدوية الأخرى بالهجوم على مدن الشام وقراها أثر الغزوات المغولية، وقد تضررت هذه القرى والمدن بشكل كبير، كما قامت هذه الطوائف بالاعتداء على الجنود الهاربين من المعارك العسكرية مما كان له اثر سلبي انعكس بشكل حاد على المجتمع البدوي.

وإذا كانت المصادر قد أمدتنا بمعلومات عن تأثير الهجوم المغولي على حياة المدن، وتأثير أقل على حياة الريف، فإنها لم تزودنا بأي معلومات عن تأثير الهجوم على البادية، لكننا من خلال استعراض حياة القبائل البدوية في هذه الفترة نستخلص أنها لم تتأثر بالشكل الذي تأثرت به المدن والأرياف، ذلك أن الغزاة اقتحموا المدن الكبيرة كحلب ودمشق ونواحيها وعاثوا فيها الفساد فكانت هذه المدن محور عملياتهم الحربية بينما نجت البادية من الدمار المغولي الذي عم هذه المدن، وبالتالي توفرت للبدو الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المناسبة التي جعلتهم يعيشون حياة تجارية مزدهرة، وأصبح لهم نفوذ سياسي في المنطقة لأنهم كانوا يشكلون فئة لا يستهان بها ضمن المجتمع العربي الإسلامي في بلاد الشام.

ب- التركمان:

دفع الغزو المغولي لبلاد الشام قبائل التركمان القاطنة في مدن الشام إلى القيام بأعمال تخريبية ضد السكان المحليين وضد الأراضي الزراعية وذلك لتنفيذ طموحاتهم ومآربهم في تحقيق ثقل سياسي وإعادة الأمجاد السابقة في إقامة دولة تخصهم. ولم يقتصر تحريض الغزو المغولي على التركمان القاطنين بداخل البلاد بل شمل التركمان القاطنين في آسيا الصغرى وفي كيليكية وفي الجزيرة الفراتية[٢].

لم تكن الأعمال التخريبية للتركمان ضد أراضي البلاد في الحملات الثلاثة هولاكو غازان - تيمورلنك على وتيرة واحدة، فبينما لم تذكر المصادر عن أعمالهم أثناء غزوة هولاكو وغازان معلومات بهذا الصدد، نلاحظ أنها أمدتنا بفيض وافر من المعلومات عن

١- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ١٧- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٦٩- الطراونة: المرجع نفسه، ص ٢١٤.

٢- من أجل دويلات التركمان في آسيا الصغرى وكيليكة والجزيرة ينظر: ابن عبد الظاهر تشريف ص ٢٥٥-٢٥٦- العمري: التعريف ص ٤١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ١٩٩-٦٧٦- ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٩٧-٢٩٨- السخاوي: الضوء، ج ٨، ص ٢٠٢- ج ١، ص ٣٠٣- ج ٥، ص ١٣٥- القرماني: أخبار الدول ص ٣٣٦-٣٣٩- الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٤١٣- شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ١٣٥-١٣٦- زقلمة: المماليك في مصر، ص ٧٣-٧٤.

أعمالهم التخريبية أثناء غزوة تيمورلنك ولا بد لنا قبل الخوض في آثار الغزو وانعكاساته على الأعمال التخريبية للتركمان من إيراد معلومات مختصر عن مناطق وجودهم في بلاد الشام.

وتبعاً لما ذكرته المصادر توزعت القبائل التركمانية بين شمال البلاد وجنوبها، ففي المناطق الشمالية استقروا في الجبل الأقرع، وقد هاجم هؤلاء في فترة متأخرة المؤيد شيخ الظاهري سنة ٨٠٤ هـ / ١٤١٠م وكثروا في حلب والمناطق المحيطة بها، إذ وجدت منهم طائفة في ظاهر المدينة دعيت بالروقية انتسبت إلى ياروق التركماني الذي بنى على شاطئ قويق فوق تل مرتفع مساكن لأهله وعمائر متسعة[١]. كذلك قطنوا في تيزين الموجودة على طريق قنسرين، وفي العمق، وفي رعبان وهي مدينة بالثغور بين حلب وسمياط قرب الفرات،- وقد أسكنهم فيها الظاهر بيبرس بعد أن خرب المغول قلعتها وسلموها لملك الأرمن، لكن الظاهر أعاد الإعمار بها مرة أخرى، ولا يغيب عن ذهن الباحث أنهم قطنوا جعبر، ذلك أن حاكمهم سالم الدوكاري أو (الذكري - الدكري) شغل دوراً هاماً سواء على الصعيد السياسي، أو في إقدامه على قطع الطرق على القوافل التجارية، إضافة إلى هجومهم المستمر على حلب، ففي سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م هاجم خجا بن سالم نائب جعبر حلب وأفسد القرى وقطع الطرق[٢]. وأكد ابن شيخ الربوة وجودهم في المناطق الشرقية في حران وعينتاب، كما تواجدوا في المناطق الوسطى كشيزر[٣].

وفيما يتعلق بالمناطق الجنوبية فقد أقاموا في الجولان، وهؤلاء قدموا من بلاد المغول، لكن حادثة وقعت لهم اضطرتهم إلى مغادرة بلاد الشام واللجوء إلى بلاد الروم خوفاً من السلطات، ذلك أنه في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م وقعت بينهم وبين الفرنج المقيمين بصفد نزاعات ومشاحنات أدت إلى قتل الكثير من الفرنج فخافوا من عاقبة ذلك ورحلوا عن البلاد[٤].

وتبعاً لما أورده ابن خلدون في أحداث سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م فإنه أكد وجود أحياء من التركمان بالقدس، تولوا قتال قطلوشاه أحد قواد غازان وهزموه[٥].

ومن الجدير بالذكر أنهم قطنوا في الشريط الساحلي الممتد على طول البحر المتوسط، وقد

١- ابن خلكان: وفيات، ج ٦، ص ١١٧- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٥١٥.

٢- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٤٤٧- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٣٢٤- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٢٢- السخاوي: الضوء، ج ٦، ص ٢٢٧- الطباخ: إعلام، ج ٢، ص ٣٠٨.

٣- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٤٦٤- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٣.

٤- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٢٨- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٨.

٥- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٦٢.

ورد أنهم استوطنوا نواحي طرابلس عند المعيصره. وذكر ابن شداد في تاريخه أنه في أثناء هجوم المغول على بعض القبائل التركمانية وفد إلى البلاد ما يزيد على أربعين ألف بيت أنزلهم في مساحة امتدت من غزة في الجنوب إلى إنطاكية إلى تخوم سيس بعد أن منحهم الإقطاعات الكثيرة[1].

لقد حرك الهجوم المغولي على المناطق المحيطة ببلاد الشام قدوم مهاجرين تركمان إليها، ففي سنة ٦٦٠ هـ /١٢٦١م قدم مهاجرون تركمان من بلاد الروم إثر تعرض منطقتهم للهجوم وقطنوا في البلاد وخضعوا للظاهر بيبرس[2].

١- نتائج الهجوم المغولي على أعمال التركمان:

كان للهجوم المغولي أثران متضادان على أعمال التركمان، آثار سلبية، وآثار إيجابية، فقد تجلى الجانب الإيجابي في تكتل طوائفهم وقبائلهم في جبهة قوية استطاعت حماية حدود البلاد من غارات الأعداء، وبالتالي الوقوف جنباً إلى جنب مع القوة العربية الإسلامية العسكرية، بينما أثر الجانب السلبي على ازدياد التنافس بينهم وبين البدو في المنطقة، ومحاولتهم مد سيطرتهم على بعض مناطق الشام إثر رحيل الغزاة متخذين نصب أعينهم الفوضى وعدم الاستقرار الأمني الذي كان يعم البلاد إثر كل غزوة.

أما الناحية الإيجابية فتجلت في ظهور التعاون والتحالف بين السلطات المملوكية وبعض القبائل التركمانية الموجودة في الشام، هذه القبائل التي شاركت السلطات مهمتها القتالية وأقدمت على المشاركة في وقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م إلى جانب البدو الذين احتلوا الميسرة، بينما كان هؤلاء في ميمنة الجيش دائماً[3].

لكن بعض عساكرهم خيبوا آمال الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠م فعندما علم بقدوم المغول جند ما يزيد على ثمانمائة شخص منهم، وأعطى لكل واحد منهم ستمائة درهم، فهرب أكثرهم لما علموا بعبور المغول الفرات، وذهب المال المدفوع كله[4].

والجدير بالذكر أن ننبه هنا إلى أن هؤلاء التركمان لم يخونوا السلطان ويخذلوه، وإنما أدركوا أنهم لا طاقة لهم بالجيش المغولي المسلح والمدرب تدريباً جيداً، كما أن الظروف الأمنية والسياسية ساهمت في إعاقة مهمتهم.

١- ابن شداد: تاريخ، ص ٣٣٥.

٢- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٢- زكريا: المرجع نفسه، ص ٦٧٨.

٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٣- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٣- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٧.

٤- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج٥، ق ٤، ص ١٠٨٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق ٣، ص ٩٠٧- ملقريوس: تاريخ، ج٣، ص ٧٢.

وحصلت مناوشات تطورت إلى لقاءات عسكرية بين التركمان والمغول قبل وقعة شقحب وتحديداً سنة ٧٠١ هـ /١٣٠١م أسفرت عن هزيمة التركمان وأسر الكثير منهم، مما حدا بنائب طرابلس اسند مركجي إلى استنقاذ ألف أسير منهم، ولم ينس المغول أعمال التركمان العدوانية ضدهم فاقتصوا منهم أثناء وقعة شقحب وقتلوا الكثير ونهبوا قراهم[١].

وعلى العموم لم يستطع الهجوم المغولي أن يحدث شرخاً في الجبهة الداخلية العسكرية لبلاد الشام، هذه الجبهة التي اتحدت وتكتلت وتوزعت الأدوار فيما بينها، وتناست النزاعات والمصالح الشخصية، فبينما اتخذ البدو على عاتقهم حماية الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وحفظ أمن البادية، والغارات على العدو التزم التركمان بالتزامات تكمل الأولى وتنحصر في حماية الحدود الشمالية من هجمات المغول الطامعين في المنطقة. وقد اتبعت السلطات السياسة نفسها التي اتبعتها مع البدو التي تتلخص في منحهم الأمريات والإقطاعات، ففي سنة ٧٣٨ هـ /١٣٣٧م كرم الناصر محمد خليل بن دلفادر وأمّره وأقطعه الإقطاعات الجليلة وهذا ما دفع بخليل إلى مقارعة المغول أكثر من مرة[٢].

لقد جمعت المصالح المشتركة كلاً من المماليك والبدو والتركمان في جبهة واحدة ضد العدو وهذا ما حدا بالأطراف جميعها إلى توقيع الاتفاقيات التي تتضمن الدفاع ضد أي طرف يتعرض للغزو، وعملاً بهذه الاتفاقيات فقد تصدى زعيم طائفة القراقونيلو/قرايوسف التركماني ضد جنود المغول الذين قدموا إلى نواحي ماردين، واستطاع الفتك بهم بعد حيلة نفذها فقد أخلى معسكره من المقاتلين مما دفع بالمغول للنزول بالخيام فداهمم وقتل الكثير منهم[٣].

كما صدت قبائل التركمان (القراقونيلو) الغارة التي شنها المغول على المنطقة سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤م، وكان عددهم نحو عشرين ألف مغولي، واستطاع زعيم القراقونيلو هزيمتهم في المعركة[٤]. ظهرت براعتهم في اكتساب المواقف الإيجابية عندما استطاعوا القبض على أطلمش قريب تيمورلنك وأسره، واطلمش كان نائبه في بعض القلاع القريبة من تبريز، لذلك أرسلوه للقاهرة سنة ٧٩٨ هـ /١٣٩٥م فأمر السلطان بحبسه في قاعدة عنده[٥].

بعد التوصل إلى معرفة موقف التركمان أثناء الحملات العسكرية المغولية، وأثر تلك

١- العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٣٨٧.

٢- المقريزي: المقفى، ج ٣، ص ٧٦٨-٧٦٩- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٠.

٣- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٢١٦.

٤- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٥٧.

٥- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٧٤- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٨١.

الحملات بات من الممكن طرح تساؤل يمكن أن يكون له قيمة في هذا الموضوع وهو لماذا انضم التركمان الذين يقطنون داخل البلاد وخارجها إلى جبهة المماليك في صراعهم ضد المغول؟ هل كان هناك عداء بنيهم وبين المغول؟ أم أن هناك أسباباً أخرى دفعتهم لهذا العمل؟

من الممكن أن يكون التركمان قد أدركوا تماماً أنهم عاجزون عن الحرب في جبهتين، جبهة المماليك من جهة والمغول من جهة أخرى، فهم لا يستطيعون الوقوف في وجه القوة العربية إسلامية عسكرياً لأنهم قوى وطوائف متفرقة لا يجمع بينها حكم مركزي قوي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى علموا مسبقاً بأنهم لا طاقة لهم على مواجهة قوات المغول الكبيرة والتي كانت تضم جنسيات مختلفة، إلى جانب يقينهم لو وقفوا إلى جانب المغول وتمكن هؤلاء من السيطرة على بلاد الشام فسيكون مصيرهم مصير جميع القبائل والشعوب التي خضعت لهم من القتل والسبي والأسر وتدمير ممتلكاتهم الزراعية والصناعية والتجارية، يضاف إلى ذلك الجانب الديني، فالمعروف أن معظم التركمان يعتنقون الدين الإسلامي السني وهم متعصبون كثيراً له وهم يلتقون في ذلك مع المماليك المدافعين عن الإسلام والمتعصبين له. لهذه الأسباب جميعاً ارتأى أمراء التركمان الانضمام إلى الجبهة الإسلامية ضد العدو المغولي وعقدوا معهم اتفاقيات تقتضي الدفاع عن التركمان ضد أي عدو خارجي.

مما سبق ذكره يبرز سؤال آخر وهو لماذا لم يتحالف التركمان مع المغول مثلما فعل الأرمن؟ وبذلك يضمنون استمرار مصالحهم وتحقيق أهدافهم.

إن المصادر العربية الإسلامية وغير العربية جعلتنا نقف أمام معضلات كثيرة وخطيرة لم يقدم أحد من المؤرخين أو الباحثين على حلها، وهذا ما ولد شعوري بالخوف أمام كل ترجيح أو رأي شخصي أورده بذلك، فأتت بعض معلوماتي استنتاجية مبنية على أحداث ووثائق تاريخية مرت بشكل مقتضب ومختصر لدى المؤرخين. وبناء على ذلك أقول إن التركمان قد علموا بعجز المغول عن تامين الحماية الدائمة لهم وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم يقطنون داخل البلاد التي يحكمها المماليك، أو على حدود دولتهم سواء الشرقية أو الشمالية منها، وكانوا على قناعة تامة بأنهم لو تحالفوا مع المغول فإن مصيرهم سيكون كمصير الأرمن، فعلى الرغم من أن المغول قد أمدوا الأرمن بجسور من المساعدات العسكرية والتجارية، وأبرموا معهم الاتفاقيات والمعاهدات التي تقتضي الدفاع عنهم، لكنهم لم يستطيعوا حمايتهم من الهجمات المملوكية خاصة وأن المماليك كانوا قوة لا يستهان بها.

جاءت تحركات التركمان وغاراتهم ضد المغول سبباً لعقوبتهم، لذلك لم تسنح أمام المغول فرصة من الاقتصاص منهم إلا اغتنموها، ففي سنة ٦٧٠ هـ /١٢٧١م هاجموهم في عينتاب، ثم

تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى المنقطة الواقعة بين حارم وإنطاكية والتي يقطنها التركمان فاقتصوا منهم وقتلوا الكثير، فسمع السلطان المملوكي بأنباء هذا الهجوم، فما كان منه إلا أن سارع إلى الدفاع عنهم، ويعتبر هذا أحد الدلائل على التحالف التركماني المملوكي[1].

وقبل موقوعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م هاجم المغول القريتين حيث توضعت بها أحياء من التركمان المهاجرين من الفرات، فاستاقوا أحياءهم بما فيها، فأنجدهم عسكر حلب وأوقعوا بالمهاجمين واستخلصوا التركمان من أيديهم، وسبى الغزاة النساء والرجال وأخذوا أسرى كثيرين[2].

وحافظت السلطات المملوكية على علاقاتها الودية مع التركمان، مع تنفيذ وعودها بحمايتهم حتى قدوم تيمورلنك بجيوشه الجرارة إلى لبلاد فاختلفت موازين القوى ولم تستطع السلطات المملوكية، حينها الدفاع عنهم، مما أدى إلى استغلال بعضهم لظروف البلاد السيئة ومهاجمة الأراضي والممتلكات من وقت لآخر.

أضمر تيمورلنك البغضاء والحقد لهؤلاء الذين تركوا المغول ووقفوا مع أعدائهم المماليك، لذلك فقد اقتص منهم ولم يرحمهم، وبدأ بالتركمان المحيطين ببلاد الشام، فهاجم عينتاب مرتين الأولى عند دخوله لبلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ /١٤٠٠م، والثانية أثناء انسحابه، حيث أسر المغول منها كل امرأة جميلة، ونهبوا ما وقع تحت أيديهم من الأموال والأطفال، حتى أخذوا المواد الغذائية التي يقتات بها السكان كالزبيب والدبس والأرز ونهبوا أسواقها، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار فيها[3].

وما عدا المعلومات التي أوردتها فيما مضى لم أقع في المصادر على أخبار تخص التركمان الذين قطنوا بالداخل، ومن المحتمل أن يكونوا قد تعرضوا للوحشية المغولية من النهب والقتل والتدمير، خاصة أن المغول عرفوا بقساوة القلب، وعدم التمييز بين طائفة وأخرى، فمثلاً عندما هاجموا حلب أصاب التركمان ما أصاب بقية السكان، وهذا يقاس على جميع المناطق التي تعرضت للتدمير المغولي والتي قطنها التركمان.

كذلك ينطبق عليهم ما انطبق على بقية السكان فقد لحقت الأضرار بأراضيهم الزراعية، إضافة إلى هجرة الأيدي العاملة في الأراضي.

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٥١٦- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.

٢- المنصوري: التحفة، ص ١٦٤- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٩٨- المقريزي: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٩٣١- العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٣٨٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٨-٢١٩- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٧-١٥٨.

٣- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٣.

٢- نتائج الهجوم المغولي في ازدياد الصراع البدوي التركماني:

تأثرت الحياة الاجتماعية والسياسية في جميع جوانبها في بلاد الشام بالهجوم المغولي. فقد ساد عدم الاستقرار السياسي وعمت الفوضى وانعدام الأمن أثناء الغارات، وتغيرت الحياة القبلية في البلاد، فقد أصبح للبدو النفوذ المطلق في أكثر الأحيان، ووصلوا إلى درجة كبيرة من الثراء والغنى، وأصبحت الأراضي المزروعة في الوقت نفسه أقل مما سبق. وهذا عاد بالضرر الكبير على العلاقات بين التركمان والبدو فكلا الطرفين سعى إلى تحقيق مصالحة الذاتية بطرق مشروعة أو غير مشروعة مما أدى إلى تضارب هذه المصالح وبالتالي إلى ازدياد المشاحنات والنزاعات بين الفريقين. وكان موقف البدو ومركزهم السياسي في المنطقة، أقوى من التركمان لأنهم حازوا على رضا الأطراف المتصارعة، فالمماليك سارعوا إلى كسب رضاهم التأمين متطلبات السلطات من الخيول والجمال والأسلحة، والمغول سلكوا الطريق نفسه معهم للحصول منهم على معلومات عسكرية وسياسية وخاصة نواحي الضعف لدى الجيش الإسلامي، إضافة إلى الحصول منهم على معدات عسكرية وحربية يفتقدونها، يؤيد ذلك كثرة هروب أمراء البدو إلى الأراضي المغولية وحمايتهم، وإقطاعهم الإقطاعات الجبلية. هذه العوامل المذكورة أدت إلى ازدياد المشاحنات بين البدو والتركمان، وكان المتضرر الأكبر من جراء هذه النزاعات هي قرى ومدن الشام التي أصبحت مسرحاً للحروب التي أدت بالنهاية إلى الإضرار بالفعاليات الاقتصادية والاجتماعية.

ففي سنة ٧٩٧ هـ /١٣٩٤م حصل صراع بين التركمان الموالين للسلطات وبين نعير بن حيار ابن مهنا، وأسفر هذا الصراع عن إبادة المواشي بما فيها الأغنام والجمال ويقال كان عددها ثلاثة آلاف جمل، يضاف إليها مقتل الكثير من البدو، ويقال أن هذه الوقعة قصمت ظهر نعير[١].

من المرجح أن رجحان كفة البدو على التركمان سياسياً في المنطقة زادت من حدة المشاحنات فالعلاقات وصلت إلى درجة سيئة جداً بين تركمان جعبر وبدو آل فضل فقد استمرت الحروب بين دمشق خجا بن سالم سيف الدين الدكزي التركماني نائب جعبر ونعير سنين طويلة أفضت بالنتيجة إلى مقتل دمشق خجا سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣م على يد نعير[٢].

٣- نتائج هجوم تيمورلنك في ازدياد أطماع التركمان:

كان لهجوم تيمورلنك على بلاد الشام أسوأ الأثر على هذه البلاد، فقد حرك هذا الغزو القبائل

١- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٩، ق ١، ص ٤٠٥- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٣٣- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ص ٥٤٥- العسقلاني: أنباء، ج ٣، ص ٢٤٥- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١١٢٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٣٢٤- السخاوي: ج ٣، ص ٢١٩.

التركمانية ودفعها نحو المناطق الحدودية مما مكنها من الاعتداءات على المدن والقرى، وأصبحت نيابة حلب والمناطق المحيطة والتابعة لها مجالاً للسباق بين التركمان أنفسهم للسيطرة عليها. ففي سنة ٨٠٤ هـ /١٤٠١م هاجمها ابن رمضان التركماني متخذاً في ذلك ذريعة مساندة نائبها دقماق ضد دمرداش[١]، كذلك هاجموها سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣م وأفسدوا في أراضيها، ووقعوا في النهب والعقوبة، كما أفسدوا في إعزاز، وفي مناطق أخرى تابعة لها[٢].

وكانت ردة فعل فارس بن صاحب الباز تجاه مناطق الشام كبيرة إثر حملة تيمورلنك، فانشغال السلطات بإعادة الاستقرار الأمني، وإعادة مجريات الأمور الطبيعية للمجتمع دفع فارس أمير التركمان بالعمق لشن الغارة على إنطاكية والقيصر وما جاورهما، ومد سيطرته على البلاد الغربية من أعمال حلب فرد عليه نائب حلب دمرداش بأن استعان على قتاله سنة ٨٠٧ هـ /١٤٠٤م بالتركمان البياضة والاينالية والغادرية والرمضانية، كما تناسى خلافاته مع طائفة الاجقية والبزقية وهاجم هؤلاء جميعاً فارس الذي تحصن بإنطاكية، فعجزوا عن الإمساك به، فما كان من دمرداش إلا أن عسكر على العمق بطائفة الاينالية والبياضية[٣].

وأرغمت الظروف الأمنية والسياسية حكم نائب حلب على الحد من سطوة ونفوذ فارس والقضاء على مطامعه العدوانية، فهاجم جكم منطقته سنة ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م وسلب نعمته وخرب بيته، ثم هاجم إنطاكية وهزم التركمان الموجودين فيها، فسألوه الأمان وأن يسمح لهم بالخروج إلى الجبال وإلى مواطنهم القديمة، ويسلموا إليه القرى الموجودة بحوزتهم، فتقرر الحال على ذلك وأرسل إلى كل قلعة واحداً من جهته ودخل حلب بعد أن استطاع أسر فارس فسلمه إلى عدوه غازي بن أوزن فقتله وقتل ولده[٤].

وتأثرت المناطق الداخلية والساحلية بهجمات التركمان مثلما تأثرت المناطق الشمالية، فقد ظهرت مطامع التركمان في طرابلس حيث أغار عليها إبراهيم بن صوجي، لكن نائبها شيخ خرج في أثره فأظهر إبراهيم الهزيمة إلى أن ابتعد عن البلد وهو يتبعه، فشفع فيه دقماق نائب

١- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٨٩- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ١٩- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ١٣٥- ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٠.

٢- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٤٤٧- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ١٤٩-١٥٣- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٣، ث ٢١٩- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

٣- ابن خطيب الناصرية: ج ٢، ورقة ١٤٥- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١١٤٢- ابن إياس: ج ١، ق ٢، ص ٧٠٣-٧٠٤.

٤- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ١٤٥- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ١٩٩- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٨- السخاوي: المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٦٣- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٧٨.

حلب فقبلت شفاعته، وتفرقت عساكره فاغتنم صوجي الفرصة وهجم على عسكر شيخ الجرار لكن الأخير هزم التركمان[1].

وتعرضت قارا لهجوم تركماني من قبل أصحاب سالم الدوكاري سنة ٨٠٥ هـ /١٤٠٢م حيث استباحوا القرى المحيطة بها ونهبوها، ونهبوا ثلث البدل، ولم يخرج إليهم نائب حلب، ولم يزعجهم، وعاقبوا الناس من أجل جمع الأموال وذلك على مثيل ما صنع تيمورلنك في البلاد[2].

والظاهر أن حملة تيمورلنك فتحت الباب على مصراعيه أمام طموحات التركمان في تحقيق كيان سياسي خاص بهم، وإعادة أمجادهم السابقة، لا سيما أنهم نجحوا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في مد سيطرتهم على معظم مناطق الشام، فقبل استيلاء السلاجقة على الشام كانت حلب والموصل وحران وقلعة جعبر تحت سلطان أسر بدورية من قبائل كلاب وعقيل ونمير وقشير، ونجح التركمان في تجريد هذه الأسر من سلطانها، واغتصاب ملكها لأنفسهم، كما أن بعض أمرائهم شغل دوراً مؤثراً في إنزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة، ويضاف إلى ذلك أن الأسرة الأرتقية التركمانية حكم أفراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من أهم قادة المسلمين أيام الحملة الصليبية الأولى، ثم أثناء الفترات التالية[3].

إن كل ما ورد ذكره من أسباب يفسر استمرار الضغط التركماني على مناطق الشام لا سيما حلب إذ أرادوا أن يسيطروا على جميع مدن الشام ويجعلوها تحت نفوذهم راغبة أو راهبة مستغلين اضطراب أوضاعها الأمنية والاقتصادية من جراء غزوة تيمورلنك، لذلك تابع علي بن خليل بن دلفادر التركماني غاراته على القرى المحيطة بحلب سنة ٨١٠ هـ /١٤٠٧م ونهبها وافسد فيها كثيراً ووقفت السلطات عاجزة عن ردعه فظل على وضعه هذا مع تسلمه لنيابة عينتاب حتى استقر الأشرف برسباي في سدة الحكم وعزله إلى مصر[4].

أمام هذا الخراب والدمار الذي لحق مناطق الشام من جراء الغارات التركمانية، قامت السلطات المملوكية بتسيير حملات لقتالهم وكانت أقوى الحملات الموجهة ضدهم التي وجهها شيخ المحمودي على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية مثل ذي الغادر، قرمانية، رمضانية إلى العودة إلى سابق عهدها من خضوع وطاعة للسلطان، ففي سنة ٨٢١ هـ

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ١٤٥- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ١٦.

٢- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ٨٦.

٣- زكار: إمارة حلب، ص ١٥٦-١٧٠.

٤- العسقلاني: أنباء ج ٦، ص ٥٢- الخساوي: الضوء، ج ٥، ص ٢١٧- كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٨١.

/١٤١٨م توجهت الحملة بقيادة المؤيد شيخ فحاصر طرسوس مدة أربعة أشهر وأكثر، فقدم له أمراء التركمان فروض الطاعة، ولكن لم يكد المؤيد شيخ يعود إلى بلاده حتى نقض التركمان القرمانية الهدنة فأرسل إليهم مجدداً حملة بقيادة ابنه إبراهيم سنة ٨٢٢هـ /١٤١٩م فوصل إبراهيم حلب، ثم كركر متوجهاً لقتال ابن قرمان الذي هرب، ثم توجه نحو لارندة فنزلها وكانت قاعدة بلاد ابن قرمان، ثم إلى قيسارية وهي أعظم بلاده، وإلى قونية، وهي كرسي البلاد، وخطب في جميع البلاد باسم المؤيد شيخ وضربت السكة باسمه وإبراهيم المذكور أسره ابن قرمان، ومات بعد فترة، ثم مات شيخ بعده سنة ٨٢٤ هـ /١٤٢١م[1].

ويبدو أن هذا الهدوء جاء مؤقتاً بدليل أن زعيم دولة الشاة البيضاء (آق قونيلو) انتهز فرصة سوء التفاهم بين السلطان برسبي وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة وأغار على حدود الشام فأرسل برسباي حملة خربت الرها سنة ٨٣٣ هـ /١٤٢٩م، لكنه لم يستطع أن يقوم بعمل تأديبي ضد التركمان، لأن ازدياد النفوذ العثماني وتدخلهم في شؤون تلك الإمارات التركمانية على حدود المماليك جعل السلطات في بلاد الشام ومصر تضع حداً لتغلغل نفوذهم ونفوذ العثمانيين، لذلك أقدمت السلطات على إرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير ذو القادر سنة ٨٧٣ هـ /٨٧٦ هـ /١٤٦٨، ١٤٧١م لأنه كان يقطع الطرق على التجار، ويمنع مرور الميرة والبضائع، مما أدى إلى ضعف نشاط الحركة التجارية في المدن الشامية، كما وصل فساده ونهبه حتى حلب وملطية فاستطاعت السلطات إنزال الهزيمة به والاستيلاء على قلعة أذنة وعينتاب وطرسوس والقبض عليه وإرساله إلى القاهرة[2].

كان من محصلات الحملات المغولية المتكررة على المنطقة خراب المزروعات، هجرة السكان من الفلاحين والعاملين إلى خارج البلاد، وقتل عدد كبير من السكان إضافة إلى النهب، وشيوع الفوضى وانعدام الاستقرار الأمني والاجتماعي، وإلى بروز مطامع البدو، وازدياد هجوم التركمان على مدن الشام وقراه رغبة في إعادة الأمجاد السابقة في تأسيس حكم تركماني يسيطر على البلاد، لكن المماليك لم يتيحوا لهم تنفيذ مطامحهم. إن هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تأخير الانجازات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يطمح إليها المجتمع العربي أثر خروج المغول من البلاد.

١- العسقلاني: إنباء، ج ٧، ص ٣٠٣-٣٤٣-٣٥٤- القرماني: المصدر نفسه، ص ٣٣٩- الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٢٨٣- عاشور: مصر والشام، ص ٢٣٤.

٢- الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠، ص ٧٠-١٢٩-٢١٣-٣٢٣- عاشور: ص ٢٤٥-٢٤٦.